

الرسول صلى الله عليه وسلم والإرشاد

العلامة المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
المقال مأخوذ من مجلة الهداية التونسية، ننشره هنا لأهميته وجلال كاتبه.

إن الكلام على الرسول من ناحية الإرشاد هو حقا كلام على الرسول من أخص نواحي صفاته بوصف الرسالة، أو بعبارة أوجز هو كلام على الرسول كله، ولذلك نجد القرآن حصر الرسول في صفات مرجعها إلى الإرشاد حصرا إضافيا مثل قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ فكانه لا صفات له غير الصفات الراجعة إلى الإرشاد.

ومما يزيد ذلك بيانا وتوجيها أن جميع ما خص الله به رسوله محمدا ﷺ من جلائل الصفات والخلال، إنما خصه به ليهيئه به إلى قبول صفة الرسالة العظمى

العامة الخاتمة.

فمن ذا الذي يطمع في أن يتكنه كنه رشاد الرسول باستيعاب، وهو إنما كان إرشاده تلقينا من علام الغيوب المحيط علمه بكل شيء. فحسب الباحث المثقف أن يلم إمامة بما يصل إلى نفسه من تصارييف ذلك الإرشاد.

وليس بنا أن نشرح هنا عموم شريعته لسائر الخلق وبقاءها على ممر العصور وإتيانها على جميع ما سبقها من الشرائع بالتأييد لما لم تقتض الحكمة نسخه، والإبطال لما اقتضته.

فقد بين الله تعالى ذلك في آيات كثيرة، أجمعها عندي قوله في سورة المائدة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﷺ المائدة: ٤٨، فالكتاب الأول هو القرآن و"ال" فيه للعهد، والكتاب الثاني هو أحد الكتب السابقة والتعريف فيه للجنس. والضمير المجرور "على" عائذ على الكتاب الثاني المراد به الجنس. فمعناه في المصدق لما بين يديه من الكتاب المقرر والمؤيد لما سبقه من الكتب الإلهية، ومعنى المهيمن: الحاكم والرقيب المتصرف، وذلك إشارة إلى إبطال أحكام كثيرة من الشرائع السالفة.

وإنَّ من يجيد النظر في معنى هذين الوصفين يجدهما قد جمعهما معنى وهو كمال الإرشاد، فإن ما قرره الإسلام من الأحكام قد دل بتقريره على أنه حكم بلغ غاية الهدى والإرشاد. وإن ما أبطله الإسلام من الأحكام قد دل بإبطاله على انتهاء المصلحة الخاصة في تشريعه وتعقيها بمصلحة أخرى عامة كلية باقية.

فهذه لمحة من البحث رأينا بها أن مجيء الرسول ﷺ إنما كان لأجل الإرشاد بأكمل معانيه، ولكن ليس

بنا أن نطرق باب البحث عن هذا الإرشاد الأكبر التشريعي، فإن ذلك بحر لا ساحل له، وإنما الغرض من موضوعنا هذا هو الإرشاد الخاص، أعني الإرشاد إلى مكارم الأخلاق، وآداب المعاشرة، وأصول انتظام الجماعة مع البحث بوجه العموم عن مكانة الإرشاد وبواعثه ومهيئاته وصفاته ومميزاته.

قوة إرشاد الرسول وسعته

لا شك في أن الإرشاد إلى الخير ينشأ عن الشعور النافع وضده، فيكون المرشد أقوى إرشادا وأكثره، بمقدار قوة شعوره بالمنافع، وفي هذا المضمار تسابقت جهود المرشدين على أقدار قوى إيفهامهم وقرائحهم إلى الإلمام بأحوال من حولهم من الأمم أو المريدين، وليس يخلو أحد ولو أعطى من قوة الملاحظات والشعور، ومن جودة التفكير والنصح، من أن تخفى عنه أمور كثيرة من بواطن وسرائر قصر بلوغ غورها، ومن ظواهر لم يلتفت إليها وحجب عن إدراكها أو عوجل عن إتقان استفادتها.

وقد أقام الله تعالى الرسل لإرشاد الأمم، وأطلعهم على ما شاء من طرق الإرشاد وموجباته. وأمرهم بما شاء إظهاره من ذلك في أولئك الأقوام وتلك العصور. وأما الرسول الأعظم الذي بعثه الله إلى الناس كافة، وجعل شريعته باقية إلى انقراض العالم، فهو أوسع المرشدين إرشادا وأقواهم فيه، لأنه الذي وهبه الله نفسا يقظى وفهما نيرا. وأيده بالعصمة من الخطل، وعضده بالوحي والتنبيه إلى دخائل الأقوام والأمم، فهو أقوى المرشدين شعورا بمسارب الضلال إلى النفوس. وهو لعصمته من الرضى بإقرارها أبلغ الناس مقدرة في تقصي آثارها واقتلاع أدوائها، لأن كمال النفس، ويقظة العقل يشعران صاحبها بما يجب لذلك، وإن الفطرة على حب الكمال للناس والغيرة على الحق تدفعان النفس إلى معالجة النقائص بقدر الاستطاعة.

تهيؤ نفس الرسول لذلك الإرشاد

قال الله تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأفاد بذلك

أنه هياً لقبول أشرف الأوصاف في المخلوقات أعني صفة الرسالة عن الله أشرف النفوس، لتظهر الملاءمة بين الحال والمحل والمحوي والحاوي. فالرسول وإن كان ملقناً من الله تعالى ناطقا عن وحي لا عن رأي، فهو مع ذلك محتاج إلى نفس كبيرة، وهمة عظيمة لأن تلقى التلقين الإلهي ليس بالأمر الهين، ولأنه يجب أن يكون الرسول عالما بدقائق ما أوحى إليه، وما يتضمنه من الحكمة كي لا يكون بعض المبلّغ إليهم أعلم به من المبلّغ. ولأن الرسول يرشد فيما لم يوح إليه فيه بشيء باجتهاده ولا سيما مراجع التشريع. وإذا كانت الرسائل متفاوتة السعة فلا جرم أن أعظم الرسائل وأوسعها أحوج إلى أكمل نفس قابلة للاضطلاع بأمرها ناهضة بأعبائها، ولأجل ذلك فطر أفضل الرسل وأكمل المرشدين على صفات وخلال تهيؤ نفسه الشريفة للشعور بحال كل ما يحف بها من الأحوال، ولإظهار آثار ذلك الشعور في استدعاء الرشد ومطاردة الضلال.

إن خصال الكمال البشرية نوعان جبلي وكسبي.

فأما الجبلي فهو ما يخلق في المرء من صفات محمودة الخلق والجليلة لأنها توصل إلى كمال نفسي أو إلى تمامه إلى تأثير فعله.

فالأول مثل سلامة الحواس وطلاقة اللسان ونباهة العقل.

والثاني مثل قوة البدن ورباطة الجأش وشرف النسب. والثالث مثل جمال الصورة، ومهابتها وعزة القبيلة.

وأما الكسبي فهو ما ترتاض عليه النفس من التخلق بالفضائل التي استعدت لها بما جبلت عليه من وسائل قبول تلك الفضائل ونمائها، وذلك جميع الآداب البشرية كالنزاهة والتقوى والمعرفة والحلم والصبر والعدل والشجاعة والتواضع وحب الإصلاح وحسن المعاشرة والجود والغيرة على الحق. وطريق الارتباط إلى ذلك بالتعليم الإلهي أو البشري، وفي الحديث النبوي (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، وقال الله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿النساء: ١١٣﴾ وبمراقبة النفس في أحوالها وخطراتها وفي الحديث (أنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة)، ولكل هاته الفضائل الجبلية والكسبية أثر جليل في صدور الإرشاد عن صاحبها ونفوذ إرشاده إلى نفوس مريديه وسامعيه.

وقد آتى الله رسوله من هذه الفضائل بنوعيتها أقصى ما تقبله النفس البشرية المطهرة حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)، ثم هيأ له قبل من مكملات الفضائل التي هي من أحوال غيره مما له تعلق به، أفضل ما تهينه العناية الإلهية لمعتنى به من الخلق، فأنشأه من أشرف الأنساب، وأعز القبائل، وأفضل البيئات، وفي أفضل البقاع وأبعدها عن العوامل التي تكسب الأقوام مساوئ الأخلاق من مذلة، وكذب، وخداع، فكانت نشأته في بلد لم تقهره الجبابة، ولم تغزه القبائل، ولم يهنه المنافسون، وحسبك أن يقول المفتخر في فخره على الناس كلهم:

فأما الناس ما حاشا قريشا

فلإننا نحن أفضلهم فعلا

فكملت للرسول ﷺ الفضائل العارضة الحافة، كما زويت له الفضائل الذاتية، والنفسانية، ولا مزية في أن لذلك كله أثرا قويا في الإرشاد، لأن المرموق بعين الجلال يكون مدفوعا إلى الإقدام على الإرشاد، وقد قال قوم شعيب له ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ هود: ٩١.

كما أن الثقة بسلامة الضمير وبأحقية النصح وبعزة الصدق، كل ذلك يدفع إلى التصريح بالإرشاد البين الواضح. وأن التقوى والنزاهة لا يتركان في النفس شيئا من الإرشاد مكتوما.

والرسول أقوى المرشدين في ذلك، أما فيما أمر بتبليغه فظاهر، وأما ليس من التبليغ، فلأنه لا يقر أحدا على باطل، فكان تغيير المنكر بالنسبة إليه منحصرًا في التغيير بالفعل، أو بالقول دون التغيير بالقلب، لأن (ذلك أضعف الإيمان) كما روي في صحيح مسلم.

وقد كان للرسول ﷺ من حسن السمعة من جراء هذه الكمالات ما عرف به في عصر الجاهلية قبل بعثته، فكانوا يعدونه

وهو فتى أكمل من ساداتهم، فلقب بينهم بالأمين، وحكموه في أهم شيء لديهم كادوا أن يقتلوا للتنافس فيه، وهو وضع الحجر الأسود في موضعه حين جددت قريش بناء الكعبة في حدود سنة 18 قبل الهجرة، فحكم بأن يوضع الحجر في ثوب وتمسك جميع عرفاء بطونهم بأطراف ذلك الثوب حتى يكون شرف رفعه ثابتا لجميعهم، ثم أخذه بيده المباركة فوضعه في موضعه المعروف، وما نازعه أحد منهم أن تولّى وضعه بيده دونهم، وقد قال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر، وقلتم شاعر، وقلتم مجنون، ووالله ما هو بأولئكم وقد عصمه الله تعالى من متابعة أمور الجاهلية التي كانوا يعدونها محاسن، وما كانت يومئذ مجرمة مثل الغرام واللهو والخمر والميسر وما كانوا يعدونها قبل الإسلام إلا مفاخر، وقد مثلت أشعار شعرائهم من التفاخر بمزاولتها، وذلك لحكمتين :

سيما العرب، فإنهم أشهر الأمم بتفشي الجود بينهم، وهم أطوع الناس للجواد، ومنتهى الجود عندهم التفضيل مع الحاجة إلى المتفضل به أو التفضل بجميع ما عند الجواد قال :

ليس العطاء من الفضول سماحة

حتى تجود وما لديك قليل

وأحاديث جوده ﷺ مشهورة.

وقد حف الله تعالى صفات رسوله بهذين الوصفين ليكون كماله تاما وإرشاده بالغا أغوار النفس، ذلك أن المتلقين للإرشاد مراتب ثلاث.

الأولى مرتبة خاصة العقلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهؤلاء لا يحول بينهم وبين الاهتداء بهدى المرشد شيء، فهم ينتفعون بالإرشاد بمقدار ما يبلغ إلى أسماعهم، وتعيه قلوبهم مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إذ صدق النبي ﷺ حينما بلغته الدعوة.

المرتبة الثانية عقلاء حف بهم من عوارض أحوالهم وأزمانهم ما يقاعسهم

أولاهما أنها نقائص في ذاتها والثانية إن الله علم أن معظم العرب سيتبع الإسلام ورسوله، ويعلمون أن ما كانوا عليه إنما هو نقائص، فعصم الله رسوله من أن تقع عليه أبصارهم بغير الإحلال في الماضي والحال، ولبسط هذا مواقع غير ما نحن بصدد.

ثم أن الإرشاد يتوقف تمام نفوذه في نفوس سامعيه على السلامة من كل منفر ينفر عن تلقيه، وقد علمنا ما فطرت عليه نفس رسول الله ﷺ من الأخلاق الجليلة. وثمة أشياء هي تكملة للسلامة من المنفرات وهي حسن السمات. والسخاء.

فأما حسن السمات فهو محاسن الخلقة وجلالها، وقد اتفقت صفات الواصفين لشمائله بالتفضيل والاحمال والتصريح والكناية والتشبيه على أنه أحسن الناس خلقا من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته: (لم أر قبله ولا بعده مثله).

وأما الجود والسخاء، فإن للجود في البشر كلهم تأثيرا على نفوسهم ولا

بمشقة، فلذلك يهرعون إلى التشغيب على المرشد بسفاسف يعدونها مهمات، وقد قال قوم فرعون لموسى وهارون ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ﴾ المؤمنون: ٤٧ فجعلوا عبودية بني إسرائيل طعنا في رسالة رجلين منهم، وقالت بنو إسرائيل مجيبين نبيهم صمويل إذ أخبرهم أن الله بعث لهم طالوت ملكا ﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ البقرة: ٢٤٧ وقال قوم شعيب ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ هود: ٩١.

وقال قيس بن عاصم التميمي يذكر اتباعهم لسجاح بنت المنذر المتنبئة ويعبر عن تحسر: أضحت نبئتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

فأهل هاتين المرتبتين بحاجة إلى صفات في المرشد تعين على استئزال طائر نفوسهم إلى السكينة في تلقي الإرشاد، حتى يأخذ قراره من نفوسهم على قدر تفاوت قابليتهم،

عن قبول الإرشاد، إمّا لحب شهرة، أو تعلق بمألوف أو غير ذلك. وهؤلاء يكرهون سماع الإرشاد ويلقون في سبيل المرشد شوك اعتراضهم ويخشون أن تعلق بذلك الإرشاد نفوس أتباعهم، فهم يصرفون أسماعهم وأتباعهم عنه، مثل عبد الله بن أبي بن سلول قبل أن يتظاهر بالإسلام، فإن النبي ﷺ مرّ به ومع ابن أبي رجال فنزل فسلم عليه ودعا إلى الله وتلا القرآن، وعبد الله بن أبي لا يتكلم، فلما فرغ النبي ﷺ من ذلك قال له عبد الله: لا أحسن ما تقول أيها الرجل، إن كان حقاً فاجلس في بيتك، فمن جاءك فحدثه، ومن لم يأتك فلا تفتنه به، ولا تفتنا به في مجالسنا. فهؤلاء إذا أعتيتهم الحيل من الغض في كمالات المرشد قد يتذرعون إلى الطعن فيه ببعض العوارض التي لا تغض من حقيقة المرشد ولكنها قد تخيل إلى العامة نقائص لأن أذهان العامة بعيدة عن إدراك الفرق بين صفات النفس وعوارض الحياة.

المرتبة الثالثة دهماء العامة وهم الذين لا يبلغ الإرشاد إلى مداخل نفوسهم إلا

وقد وجدنا الناس تجاه الإرشاد الرسولي
ثلاثة أصناف:

صنف هم طلاب الحق، ورغاب
رشد، وهذا الصنف هم الذين أعدت
لهم الحكمة والموعظة الحسنة، بحسب
اختلاف مراتبهم في تأثير الحكمة فيهم
أو تأثير الموعظة الحسنة على نفوسهم، أو
حسب اختلاف أحوال الواحد منهم.

الصنف الثاني منازع مرجو مثل
أهل الرأي من المشركين، ومثل أهل
الكتاب، لأنهم على إثارة من علم وهذا
الصنف هو الذي أعدت له المجادلة
بالتي هي أحسن، لأن الله قال في آية
أخرى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العنكبوت: ٤٦، وقال
في شأن المشركين ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ
قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف: ٥٨، فوصف
حجاجهم للرسول بأنه جدل.

الصنف الثالث جاهل مكابر، وهذا
الصنف هو الذي أمر بالإعراض
عنه بعد إبلاغه الدعوة بقوله تعالى

من أجل ذلك استوفى الله لرسوله،
وهو أكمل المرشدين جميع
صفات الكمال، وبرأه من جميع
النقائص، وكمل له صفات ليست
هي المشروطة في تبليغ الدعوة
والإرشاد، إذ قد يوجد بعضها في
غير المرشدين، وفي دعاة الضلالة.

ولكنها تأييد تمهيدي ليبلغ الإرشاد
إلى نفوس فر يقين، فإذا ظهر الحق عقبها
كان ظهوره كالفجر الصادق عقب
ظهور ذنب السرحان.

أسلوب إرشاده، وشكله، ونفوذه:

لقد وصف القرآن أسلوب
إرشاد الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿أَدْعُ
إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
النحل: ١٢٥. ويقول ﴿وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف: ١٩٩.
وهاتان الآيتان تختصان بإرشاد
الرسول بما زاد على ما أنزل عليه
من القرآن كما هو ظاهر.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ الشورى: ٤٨،
وقوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

فأما أسلوب الحكمة فهو أسلوب جامع
لشعب كثيرة، لأن الحكمة تقتضي أن يكون
الإرشاد مناسباً لحال المرشدين وقابليتهم،
ومن هذه الشعب ما تقدم لنا بيانه من كمال
إرشاد الرسول، ومن أجل مظاهر أسلوب
الحكمة ما تضمنته جوامع كلامه ﷺ الكثيرة.
وتدخل في قسم الحجج القواطع.

وأما أسلوب الموعظة الحسنة، فهو
أسلوب الترغيب والترهيب، وهو أجلى
مظاهر الخطابة إذ الموعظة هي التذكير
بما يُليّن القلب للانفعال بما يأمره الواعظ،
ووصفه الله تعالى بالحسنة وصفا أهمل
المفسرون الغوص على مقصده، فالحسنة
أما بمعنى المناسبة لحال الموعوظ في لين أو
شدة فحسنها باعتبار حصول فائدتها.
وأما أن تكون بمعنى الملاءمة لطباع الناس
وهي التي أخذ فيها جانب اللين بقدر
الإمكان، وهذا الاحتمال أظهر لأنه أوفق
بقوله بعد، ﴿وَحَدِّثْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
النحل: ١٢٥، وهذا الحسن تنبثق منه أفانين
كثيرة في الإرشاد، مرجعها إلى توخي

الحالات التي تكون نفوس السامعين فيها
أعلق بالإرشاد، فمن ذلك الإرشاد عند
ظهور رقة النفوس وخوفها كما خطب
النبي ﷺ في صلاة العيد فأمر الناس
بالصدقة فقال: (يا معشر النساء تصدقن،
رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة)،
فجعل النساء يلقين الفتخ والخواتم
والأسخية في ثوب بلال.

ومن الموعظة الحسنة الإرشاد بطريق
التمثيل والتشبيه للتحسين أو للتقبيح
مثل الحديث: (أيكم مال وارثه أحب إليه
من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد
إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال: فإن
ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر).

وانظر هل تجد في إيقاظ النفوس
إلى مكارم الأخلاق والحرص على
الالتزام بميسم زكاء الفطرة أبلغ وأوجز
من التشبيه في قوله ﷺ (الناس معادن
كمعادن الذهب، والفضة، خيارهم في
الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).

وأما أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن
فهو مختص بإرشاد المتردد المعارض

فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا⁽²⁾ تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك. فقال لهم رسول الله ﷺ (ما بي ما تقولون ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم). ثم اقترحوا عليه أشياء تضمنها قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتَجِيرًا ۖ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

ومعنى ﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالمجادلة بالتي هي أحسن فحذف الموصوف بدلالة ﴿جَادِلْهُمْ﴾ وتأنيب الصفة عليه، والتفضيل في قوله ﴿أَحْسَنُ﴾ تفضيل على حسن الموعظة، وهذا مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العنكبوت: ٤٦، علم الله رسوله أن مقام المجادلة أحوج إلى الإحسان من مقام الموعظة لما أنها موعظة لمعارض خصم، ويفسر الحسن المفضل هنا بأحد الوجهين اللذين فسرنا بهما الموعظة الحسنة.

وقد جادل رسول الله ﷺ رؤساء قريش حين كان بمكة اجتمعوا عند ظهر الكعبة وقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلّموه حتى تعذروا إليه، فبعثوا إليه فجاءه ﷺ مسرعا فقالوا يا محمد، إنّا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل إلى قومه ما أدخلت على قومك، لقد عبت الدين وشتت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا

وأما في الإرشاد إلى حسن الأخلاق وفعل الخيرات، فقد كان رسول الله ﷺ يرشد بعضا ويعرض عن بعض بحسب ما يرجوه من القبول والتأثر، وقد جمع بين الإعراض والإرشاد في كتابه إلى مسيلمة ابن حبيب الحنفي الملقب بالكذاب، فإن مسيلمة كتب إلى رسول الله ﷺ إن لي نصف الأرض ولك نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون فكتب إليه رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨.

وأما شكل الإرشاد، فقد استوعب الإشارة إليه قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة: ١٢٨ فعزة عنت الناس عليه مما يبعثه إلى تعجيل الإرشاد إليهم وإكثاره منه في كل مشاهدة تقصير أو توقعه، وقد ورد في صفة مجلسه ﷺ أنه (مجلس حياء وعلم).

وأما صفة الحرص، فهي باعثة على توخي إيعاء السامعين كلامه،

من المجادلة الحسنة مجادلته أهل نجران لما وفدوا عليه في ستين رجلا، منهم أربعة عشر من أشرافهم، ورؤسائهم ثلاثة إليهم مرجع أمرهم وهم العاقب أي الأمير واسمه عبد المسيح، والسيد دونه واسمه الايهم، والأسقف عالمهم واسمه أبو حارثة، فناظروا رسول الله ﷺ في شأن عيسى، فناظرهم رسول الله ﷺ بما تضمنته أول سورة آل عمران إلى نحو ثمانين آية منها إلى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٥٩ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ٦٠ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران: ٥٩ - ٦١. ومجادلات أهل الكتاب كثيرة في القرآن.

وأما الإعراض عن المكابرين فإنما يكون في إرشاد الدعوة بعد التبليغ، لأن الله تعالى أمره بالإعراض بعد أن أمره بالتبليغ إذ قال ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الحجر: ٩٤.

موسى الأشعري قال: (قال رسول الله ﷺ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ، والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) (3).

قالت عائشة: (كان رسول الله ﷺ يحدث الحديث، لو عده العاد أحصاه وكان إذا تكلم بالكلام في الدين والإرشاد أعاد الكلام ثلاثاً)، وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: (كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل)، أي تباعد بين الجمل في النطق ليعيها السامعون، وقد ورد أنه لو شاء أن يكتب أحد كلامه لا استطاع ذلك. ومن معنى الحرص على بلوغ الإرشاد ما جاء في الحديث الصحيح (نَصَّرَ اللهُ امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى من ليس بفقيه وفي رواية قرب مبلغ أوعى من سامع).

وأما نفوذ الإرشاد في نفوس المرشدين، فذلك تابع لتفاوت استعدادهم. وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُتَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ النمل: ٨٠، ودون ما تضمنته هذه الآية مراتب متكاثرة ترجع إلى ثلاث رتب. ولم أر كلاماً أفصح وأجمع لهذه الرتب الثلاث من الحديث الذي رواه البخاري عن أبي

الهوامش

- (1) في 12 رجب 1393 (11 أوت 1973) بضاحية "المرسى"
- (2) كانوا يسمون التابع من الجن الذي يظهر لأحد ويلزمه ولا يفارقه رثيا. بمعنى مرئي، وكانوا يزعمون أن لكل فحل من الشعراء رثيا، وكان الأعشى يزعم أن رثيه يسمى مسحلا، فقال: إذا مسحل يبدي لي القول انطق. وهذا الزعم هو الذي عناه المعري بقوله: وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسنا عدوه من صفة الجن.
- (3) النقية: الطيبة من الأرض.
- والكلأ - مهموز - : الآخر من دون مد هو المرعى الغليظ.
- والعُشب - بضم العين وضم الشين - : المرعى الرطب الخفيف فإذا هاج فهو حشيش.
- والأجادب - بالبدال المهملة - : جمع جذب - بفتح الجيم والبدال - وهي الأرض التي تفر فيها المياه ولا تنبت شيئا.
- والقيعان - بكسر القاف - : جمع قاع، وهو الأرض المستوية التي لا تمسك الماء.